على مقهى فى الشارع السياسى

إحسان عبد القدوس

قال الشاب وهو ساهم :

– إنى حائر . أحيانا أتصور أمريكا كدولة قوية جبارة فى قوتها ، تفرض على العالم تخطيطا استعماريا تابعا تواجه به التخطيط الاستعمارى السوفيتى . وأحيانا أتصورها دولة تحكمها جماعة من الضعفاء المغفلين ، يحددون سياستهم تحت تأثير ما تفرضه مصالحهم الخاصة . فرئيس الدولة لا يؤمن إلا بالسياسة التى تضمن له الاستمرار فى الحكم ، ورجال الاقتصاد لا يطالبون إلا بالسياسة التى تحقق لهم الأرباح . وبعد هذا . لا شىء اسمه حرية . ولا شىء اسمه حقوق وطنية . ولا شىء يمكن أن يسمى الشرف السياسى . .

وقال العجوز فى هدوء :

– ما يجب أن تقتنع به هو أن السياسة الأمريكية هى سياسة ثابتة . . حتى مع تعدد الفشل والنجاح فى السياسة الأمريكية . . ومع تعدد المكاسب والخسائر . . ومع تعدد رؤساء الدولة ، واختلاف كل منهم مع الآخر فى أسلوبه واجراءاته . . حتى مع كل هذا فإن اسس ومبادىء السياسة الأمريكية لم تتغير منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . . من يومها والخط واحد والهدف واحد . .

وقال الشاب وهو يهز رأسه كأنه يعافى من حيرته :

– حتى مع اقتناعى بأن الهدف لا يتغير فإنى حائر مع الأساليب والمواقف الأمريكية . . إن أى أسلوب يجب أن يسعى لكسب الأصدقاء فى سبيل تحقيق الهدف . . إن السياسة الأمريكية كانت تفرض عدم الوقوف بجانب مصر إلا إذا كسبت أمريكا صداقة مصر . ووضعت هذه الصداقة داخل قيود تضمن استمرارها . . وقد تحقق هذا . تحقق الهدف الأمريكى بأسلوب السعى إلى صداقة مصر . فلماذا لا يستمر نفس الأسلوب بالنسبة لكل المواقف الأخرى التى تتصل بالسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط . . لماذا رفضت أمريكا مثلا قرار مجلس الأمن الخاص بمطالبة إسرائيل بالتكفير عن اعتدائها على الزعماء الفلسطينيين ؟ . . إنها قضية متعلقة بالمبادىء الإنسانية العامة ، وقد وقفت كل دول مجلس الأمن فى نصرة هذه المبادىء ، فكيف تجرؤ السياسة الأمريكية على أن تنفرد وحدها بموقف يرفض هذه المبادىء ، ويؤيد مبدأ الإرهاب السياسى ؟ . . هل هم مغفلون إلى حد تجاهل المظهر الأخلاقى العالمى وإلى حد الاستهانة بصداقة الدول العربية . . أو هم جبارون ؟ . .

وقال العجوز بلا حماسة وهو يرفع مبسم الشيشة إلى شفتيه :

– إن السياسة الأمريكية القائمة تقوم على اعتبار أن كل ما يخص اسرائيل . . من المسائل الداخلية الأمريكية التى لا يحق لأية قوة أجنبية التدخل فيها ، حتى لو كانت هذه القوة ممثلة فى مجلس الأمن . .

وصاح الشاب :

– إن الذين اعتدوا على الزعماء الفلسطينيين من أهالى اسرائيل ، وليسوا من أهالى أمريكا . .

وقال العجوز مبتسما فى إشفاق على الشاب :

– إن إسرائيل ولاية أمريكية . . وكل ما يحدث فى أية ولاية أمريكية . . إما أن يخضع لقانون الولاية ، وإما لقانون الدولة أى الحكومة المركزية . وعلى السياسة الأمريكية أن تقرر ما إذا ما كان الاعتداء على الفلسطينيين يقع تحت أحكام القانون الاسرائيلى ، أى قانون الولاية ، أو تحت قانون الدولة الأمريكية ، أى الحكومة المركزية . فتدخل واشنطن فى المشكلة . . أما أن تتدخل دولة أجنبية فلا يمكن . .

وقال الشاب رافضا :

– إنى مهما اعترفت بمسئولية أمريكا عن إسرائيل فلا يمكن أن أصل إلى حد الاعتراف بأن اسرائيل ولاية أمريكية . .

وقال العجوز وهو لا يزال مشفقا :

– لأنك لا تعلم طبيعة تكوين الولايات الأمريكية . . إن كل ولاية لها كيانها الخاص وقوانينها الخاصة . . إن كل ولاية تختلف عن الأخرى فى اختيار القوانين الاقتصادية والاجتماعية . بل قوانين الأحوال الشخصية . . ولاية تبيح الطلاق وولاية لا تبيح الطلاق . . وولاية تعطى للزوجة حقوقا أكثر على الزوج من ولاية أخرى . . حتى إن الأفراد يتعمدون الانتقال من ولاية إلى ولاية طبقا للقوانين التى تحقق مصالحهم الخاصة . . ثم إن هناك ولايات أمريكية خارج أراضى أمريكا . . إن ألاسكا ولاية أمريكية رغم أنه يفصلها عن أمريكا دولة كاملة وهى كندا . . وهاواى ولاية أمريكية رغم أنه يفصلها عن أمريكا المحيط الباسفيكى . . ولذلك لا تستبعد أن تكون اسرائيل ولاية أمريكية رغم بعد المسافة بينها وبين أمريكا . . وربما اختلفت إسرائيل عن بقية الولايات بأن لها كيانا مستقلا فى السياسة الخارجية وقواتها المسلحة . . ولكنه اختلاف مظهرى . . فليس من حق اسرائيل أن تتخذ موقفا فى السياسة الخارجية يختلف عن موقف واشنطن . . وكل القوات الإسرائيلية تخضع للتمويل والتسليح الأمريكى ، ولا يمكن أن تتحرك إلا بموافقة واشنطن حتى لو كانت موافقة ضمنية . .

ولذلك . . كان لا يمكن الوصول إلى اتفاقية سلام بين إسرائيل ومصر إلا بتدخل الحكومة المركزية . . أى واشنطن . . ولماذا تقبل إسرائيل أن تكون واشنطن طرفا ثالثا فى المفاوضات ؟ . .

لأنها تعترف بواقعها . . تعترف بأنها ولاية أمريكية وأية مفاوضات خارجية يجب أن تتولاها الحكومة المركزية مهما حدث من خلاف بين حكام الولاية وحكام الدولة . . وهذا أيضا فإن واشنطن ترفض أن تتدخل الدول الأجنبية فى أى موضوع خاص بإسرائيل . .

وقال الشاب صامتا كأنه بدأ يميل إلى الاقتناع :

– ربما لهذا ترفض أمريكا محاولة الدول الأوربية التقدم بمبادرات جديدة لحل المشكلة . . بل إنها هاجمت الرئيس الفرنسى ديستان لمجرد أنه أعلن عن نيته فى التدخل والبحث عن حل . .

وقال العجوز مبتسما فى هدوء :

– ليست هذه هى المرة الأولى . . وقبل حرب ٧٣ استطاع الرئيس السادات أن يجمع دول أوربا للبحث عن حل . . ولكن أمريكا وقفت واحبطت هذه المحاولة . . وأكثر من ذلك . . لقد استطعنا يوما ما أن نجمع بين أمريكا والاتحاد السوفيتى فى اتفاق مشترك لحل القضية ، ولكن أمريكا أيضا تجاهلت هذا الاتفاق . . ولم تتحرك أمريكا للوصول إلى حل إلا بعد أن تأكدت أنها تتحرك وحدها ، وأنها وحدها صاحبة القوة المؤثرة التى يمكن أن تفرض الحل . . وذلك لأنها ، كما قلت لك ، تعتبر اسرائيل ولاية أمريكية محرم على القوى الخارجية التدخل فى شئونها . .

وقال الشاب فى حيرة :

– ولكن ما رأيك أنت فى محاولة دول أوربا الغربية التدخل والوصول إلى مبادرة جديدة . .

وقال العجوز وقد اشتعل حماسه :

– يجب أن تؤيد هذه المحاولة دون أن تضع شروطا مسبقة . . يكفى أن تتحرك هذه الدول لصالح القضية حتى بدافع من مصالحها الخاصة . . وإذا فشلت المحاولة فلن يؤثر هذا الفشل فى اتفاقيتى كامب ديفيد ولا فى المعاهدة المصرية الإسرائيلية . . وإذا نجحت فلا شك أنه نجاح سيكون فى صالح الاتفاقيتين وفى صالح المعاهدة . . أقصد صالحنا نحن بصرف النظر عن صالح اسرائيل . .

وقام الشاب منصرفا قائلا :

– عن إذنك . . سأذهب لاعداد سفرى إلى أمريكا . . فلبيت دعوة . . إن الدعوات الأمريكية تزيد أضعافا على الدعوات التى كنا نتلقاها أيام زمان من روسيا . .

وقال العجوز ضاحكا :

– إن أمريكا أكرم . .